﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَىۡءٍ عِلۡمَا ٩٨﴾

[طه: 98]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيـانُ الـشِّـرك وعقوبةِ أسيادِه يُتبعُ ببيان الإله الحقِّ

بعدَ أن بيَّن النَّظمُ الجليلُ ضلالَ السّامريِّ، وما جاء به منَ الشِّرك؛ قصرَ الألوهيَّةَ على الله تعالى، فلمّا فرغَ من إبطال الباطلِ؛ شرع النَّظمُ في بيان الحقِّ وتحقيقِ الدّين الحقِّ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَسِعَ﴾: (وسع) أصلٌ يدُلُّ على خِلافِ الضّيقِ والعُسْرِ، يُقالُ: وسُعَ الشَّيْءُ واتَّسَعَ[2]، والسَّعَةُ تقالُ في الأمكنة، وفي الحال، وفي الفعل كالقُدرةِ والجودِ ونحوِ ذلك، والوُسْعُ منَ القدرة: ما يفضلُ عن قدر المكلَّف، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة: 286]، وقولُه: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىۡءٍ عِلۡمًاۚ﴾ [الأعراف: 89] وصفٌ له نحو: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَىۡءٍ عِلۡمًا ١٢﴾ [الطلاق: 12]، وقولُه: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦٨﴾ [البقرة: 268]، عبارةٌ عن سَعَةِ قدرته وعلمه ورحمته وإفضاله، كقوله: ﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىۡءٍ عِلۡمًاۚ﴾ [الأنعام: 80][3]، و ﷻ الواسِعُ: هو الَّذي وسِعَ رِزْقُه جميعَ خَلْقِه، ووَسِعتْ رحمتُه كُلَّ شَيْءٍ وغِناه كُلَّ فقرٍ، وهو الكثيرُ العطاءِ الَّذي يَسَعُ لِما يُسْأَلُ، ويُقالُ: الواسِعُ المُحيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىۡءٍ عِلۡمَا﴾[4]، والمرادُ به في الآية الكريمة: أنَّ علمَه تعالى تامٌّ، ولم يَضق علمُه عن شيءٍ، فلا يخفى عليه شيءٌ[5].

(1) المراغي، تفسير المراغي: 16/ 147.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وسع).
(3) الرّاغب، المفردات: (وسع).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (وسع).
(5) الواحدي، البسيط: 14/ 515.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

حصرُ الألوهيَّة بإلهٍ واحدٍ أحاطَ علمُه بكلِّ شيءٍ وهو الله تعالى

يخبرُ النَّظمُ الكريمُ النّاسَ مخاطبًا إيّاهم بعد إيراد قصَّةٍ تبيِّنُ عظمةَ التَّوحيد وفظاعةَ جريمةِ الشِّرك، معرِّفًا إيّاهم بإلهِهم الحقِّ الواحدِ، نافيًا أن يكون العِجل إلهًا، أي: ليس هذا بإلهِكم، وإنَّما المستحقُّ للعبادة والتّعظيم اللّه الذي لا إله إلا هو، ولا تنبغي العبادةُ إلّا له، فكلُّ شيءٍ فقيرٌ إليه، وهو الخالقُ لكلّ شيء، هو العالمُ بكلّ شيء، وقد أحاطَ بكل شيء علمًا، فلا يعزبُ عنه مثقالُ ذرّة في السّماوات ولا في الأرض، وما تسقطُ من ورقة إلّا يعلمُها ولا حبّةٍ في ظلماتِ الأرض ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلّا في كتابٍ مبينٍ"[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نُكتةُ فصلِ قوله: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ﴾:

التَّعقيبُ على إبطالِ الشِّرك بإعلانِ التَّوحيدِ

فصلَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ لأنَّها مستأنفةٌ، سيقتْ لإحقاق الحقِّ وإبطالِ الباطل، فأبطلَ ما جاء به السّامريُّ منَ الشِّرك، وبيَّن أنَّ المستحقَّ للعبادة والتَّعظيم هو اللّه تعالى وحده، فهو العالمُ بكلٍّ، ولا تخفَى عليه خافيةٌ في الأرض ولا في السَّماء[2].

لا وجْهَ للتّسويةِ بينَ الخالقِ والمخلوقِ

وجامعُ التّقابلِ والتضادِ مِن شأنه أن يتطلَّب الواوَ؛ لتعطف مضمونَ هذه على مضمون الحديث عن إله السّامريِّ؛ لِما بينهما مِنَ التوسُّط بين الكمالَين، كعطفِ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: 14] على قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [الانفطار: 13]، ولكنَّ الواوَ غابت إبلاغًا في نفي التّسويةِ بينهما مِن كلّ جهةٍ؛ لضعف النُّفوسِ التي عبدتِ العجلَ مِن دون اللّه ومِثْلِها في كلّ عصرٍ ومصرٍ وجنسٍ؛ مِمَّا يقتضي هذا الإبلاغَ الحاسمَ الفاصلَ بين المخلوقيّةِ والخالقيّةِ.

(1) المراغي، تفسير المراغي: 16/ 147.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 148.

غرضُ الالتفاتِ من ضمائرِ التَّكلُّم إلى الغيبةِ:

خـطـابُ الأمَّـة بـالـحـقـيـقـة المطلقةِ، وتحقيرُ الـسّـامـريِّ بالإعراضِ عنه

التفت النَّظمُ الجليلُ في الخطاب من صيغةِ المخاطَب المفردِ إلى خطاب الجمعِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، فلم يقل: (إنَّما إلهك)؛ وذلك للإعراضِ عن خطاب السّامريِّ تحقيرًا له وتهوينًا، ولئلّا يلتبسَ خطابُ الرّسول محمَّد ﷺ أو خطابُ كلِّ من يتأتَّى خطابُه مِن أمَّة رسولِنا أمّةِ الإجابة بخطاب السّامريِّ، فجاء الخطابُ بالجمع لتنزيه الرّسول وأهلِ الإيمان عنِ الالتباس بهذا السّامريِّ، وتنبيهًا للسّامعين مِن الذين عبدوا العجلَ، ومَن في حكمِهم على خطئِهم، وتقريرِ حقيقةِ التَّوحيد[1]، كما أنَّ مضمونَ الجملة ليس ممّا يخصُّ المحاورةَ مع السّامريِّ، بل هي حقيقةٌ مطلقةٌ، ولمّا كان القومُ مشاركين بالجُرم بطاعة السّامريِّ؛ وُجِّهَ الخطابُ إليهم تعليمًا لهم وتبيينًا للحقِّ.

بلاغةُ القصرِ بـ﴿إِنَّمَآ﴾ ونوعُه وغرضُه:

حـصـرُ صـفـةِ الألوهيَّةِ بالله تـعـالى عـلى خلاف ظنِّهم وما اعتقدوه

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بأسلوب الحصرِ بـ﴿إِنَّمَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ﴾ تأكيدًا لمضمون الجملةِ وتقويةً للخطاب، وهو قصرُ قلبٍ؛ لأنَّهم ظنّوا عكسَ المضمون وخلافَه؛ إذ "لمّا أراهم بطلانَ ما هم عليه بالعيان؛ أخبرهم بالحقِّ على وجه الحصر"[2]، وهو قصْرُ صفةٍ على موصوفٍ، فقصرَ صفةَ الألوهيَّة على الله تعالى.

غرضُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصول وصلتِه:

تأكيدُ التَّوحيد بـوصْـفِ الإلـه بالوَحدانيَّةِ

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ باسم الموصول في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ لبيان صفةِ الله تعالى[3]، والصِّفةُ هي ما تضمَّنتْه صلةُ الموصول من دلالةٍ على الحصر، فقصرُ الألوهيّةِ عليه هي صلتُه، فاختصاصُه بالألوهيّة مِن شأنه هو وحدَه،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 300.
(2) الخطيب، السراج المنير: 2/ 483.
(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 417.

وهذا إبلاغٌ ظاهرٌ في تقرير التّوحيدِ وإحقاقِ الحقِّ، ومن ثَمَّ هو إبلاغٌ ظاهرٌ في تقرير بطلانِ غيرِه.

بلاغةُ القصرِ بالاستثناءِ بعدَ النَّفي في كلمة التَّوحيدِ ونوعُه:

وَحـدانـيَّـتُـه تـعـالى ثـابـتـةٌ لـعـمـوم الـنّـاسِ لا لـلـمـخـاطَـبـين حسب

عقَّب النَّظمُ الجليلُ جملةَ القصر في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ﴾ بقصرٍ آخرَ بأسلوب الاستثناءِ في قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾، وذلك تأكيدٌ لمضمون القصرِ، والفرقُ بين الجملتَين: أنَّ القصرَ في الجملة الأولى مضافٌ إليهم، فاقتضى حصْرَ ألوهيَّة الله تعالى فيهم، وذلك لا يلزمُ أن يكون لغيرهم إلهٌ غيرُه[1]، فجاء بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ إطلاقًا لوَحدانيَّته وإلهيَّته للنّاس جميعًا؛ ولذلك جيء بـ(ما) و(إلّا)؛ لأنَّ كثيرًا منَ النّاس يُنكرُ مضمونَ الخبر، ويدفعُه.

نُكتةُ فصلِ قوله: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىۡءٍ عِلۡمَا﴾:

الـعـلـمُ بـكـلِّ شيءٍ دليلٌ على صفةِ الوَحدانيَّة المحصورةِ في الله تعالى

فصلَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىۡءٍ عِلۡمَا﴾؛ لأنَّها مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا[2]، سيقت للجواب عن سؤالٍ نشأ من حصرِ الألوهيَّة بالله تعالى وحده، فكأنَّه قيل: كيف كان إلهًا واحدًا لجميع النّاس؟ فقيل: كان كذلك؛ لأنَّه ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىۡءٍ عِلۡمَا﴾، ومن صفاتِ الإله العلمُ بكلِّ شيء، وهذه الجملةُ يلزم منه ما قبْلَها، وهي مما يلزمُ ما قبْلَها؛ فبينهما توكيدٌ خفيٌّ، وبينهما كمالُ اتّصالٍ؛ فلهذا غابتِ الواو.

بلاغةُ التَّعبير بـ ﴿وَسِعَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

شـرطُ الإلـهـيّـةِ إحـاطـةُ عـلـمِـه بـكـلِّ شيءٍ في الوجود

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعلِ ﴿وَسِعَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىۡءٍ عِلۡمَا﴾ للدَّلالة على إحاطتِه تعالى بعلم كلِّ شيءٍ إحاطةً تامَّةً؛ لأنَّ الواسع يحيطُ أكثرَ بكلِّ ما كان دونَه[3]، وفي ذلك تعبيرٌ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 152.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 417.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 301.

عن علَّة اتِّصافِه بالتَّوحيد ﷻ، فعلمُه الذي يحيطُ بكلِّ شيءٍ يدلُّ على كونِه الخالقَ الواحدَ، والتَّعبيرُ بصيغةِ الفعل الماضي دون الوصْفِ بالاسم للدَّلالة على تحقُّق علمِه بحدوث الأشياءِ، فكلُّ شيءٍ يحدثُ، ويقعُ في الدُّنيا؛ فإنَّ علمَ اللَّه تعالى سابقٌ له، فهو تأكيدٌ لسَعةِ العلمِ وشمولِه.

فائدةُ التَّعبيرِ بلفظ العمومِ ﴿كُلَّ﴾:

شـمـلَ علـمُـه الأشـيـاءَ، فـالـخـفـايـا مكشوفةٌ له ﷻ لا يقصرُ علمُه عنها

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بلفظِ العموم ﴿كُلَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، وإضافتِه للنَّكرة للدَّلالة على شمول علمِه تعالى لكلِّ شيءٍ، وما صحَّ أن يُطلق عليه لفظُ شيءٍ؛ فهو محاطٌ بعلمِ اللَّه تعالى، فعمومُ العلم يشيرُ إلى أنَّ علمَ اللَّه تعالى كائنٌ بجميع الكائناتِ، شاملًا لذواتِهم وأعمالِهم، أي: وسع علمُه كلَّ شيءٍ فلا يضيقُ علمُه عن شيءٍ، ولا يُعجزُه شيءٌ، أي: لا يقصرُ عن الاطِّلاع على أخفَى الأشياء[1].

فائدةُ التَّعبيرِ بالتَّمييز:

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بالعلم المنتصبِ على أنَّه تمييزٌ في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، وهو تمييزٌ محوَّلٌ عن الفاعل، ثم نُقِل الفعلُ عنِ العلم إلى لفظِ ﴿كُلَّ﴾، ونُصب العلمُ على التَّمييز والتَّفسيرِ لتلك السَّعةِ، والتَّقديرُ: (أحاط علمُه بكلِّ شيءٍ)[2]، فهو ميَّز نسبةَ السَّعةِ إلى اللَّه تعالى، جيء به لتَبْيين بأيِّ شيءٍ كانت تلك السَّعةُ، فدلَّ على أنَّ السَّعةَ كائنةٌ بالعلم، أي: علمُه تعالى وسعَ الأشياء كلَّها، فلا تغيبُ عنه[3]، فوقوعُه تمييزًا يعني: أنَّه المقصودُ بالسَّعة، وما عليه التَّنزيلُ أبلغُ في تقرير إحاطةِ اللَّه بكل شيءٍ؛ إلماعًا إلى الجبروتِ والتَّملّك

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 301.
(2) الواحدي، البسيط: 14/ 515، والخطيب، السراج المنير: 2/ 483.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 301.

والمِلْكِ والمُلْك والقهرِ والعلوّ والسّطوة، فيرجعُ إلى قوله في المطلع: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾ [طه: 3].

نُكتةُ تنكيرِ ﴿عِلْمًا﴾:

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عنِ العلم بصيغةِ التَّنكير في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾؛ دلالةً على التَّعظيم والتَّفخيم، فلمّا ذكرَ ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ الدّالَّ على العموم؛ ناسبَ أن يفسِّر ذلك العمومَ بعلمٍ عامٍّ شاملٍ لا يُدرَك شأنُه، ولا يُحاطُ بهِ، فكان التَّنكيرُ أنسبَ لذلك.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والثلاثون،
سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والثلاثون، سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 32 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-74-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 32 : المجلد الثاني والثلاثون، سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-74-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4565158 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»